

محمد الفاتح

فاتح القسطنطينية

محمد محمود القاضي

١٤١٩ هـ - ١٩٩٩ م

دار التوزيع والنشر الإسلامية

٨ ميدان السيدة زينب ت: ٣٩١١٩٦١ - ٣٩٠٠٥٧٢ ص ب ١٦٣٦

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده، ونصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، أرسله ربه بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون، ففتح به قلوبًا غلفًا، وأعينًا عميًا، وآذانًا صمًا .

وبعد،

فإن الجهاد فى سبيل الله هو ذروة سنام الإسلام، وما تركه قوم إلا ذلوا، ومنذ أن أمر الله المسلمين بقتال المشركين فى قوله تعالى : ﴿ **وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً**﴾ [التوبة: ٣٦]، انطلقت كتائب الجهاد فى سبيل الله تفتح البلاد شرقاً وغربًا ابتغاء رضا الله ﴿**فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا**﴾ [النساء: ٧٤].

وكانت كتائب الجهاد تدرك هدفها جيدًا، فقد كانت رسالتها فى كل لقاء لها مع أعداء الله واضحة، وهى: «إن الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام».

وكان يقود هذه الكتائب قادة عظام صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فصدقهم الله، وفتح على أيديهم، وأيدهم على أعدائهم فى معارك فاصلة.

وسوف نقدم فى هذه السلسلة نماذج فريدة لقادة الفتح الإسلامى الذين ضربوا أروع الأمثلة فى فنون القيادة والحرب، وكانت المعارك الحربية التى قادوها دليلاً على عبقريتهم وعظمتهم، فيجدر بكل مسلم أن يدرس سيرة هؤلاء القادة؛ ليقتدى بهم فى حياته، والله نسأل أن يرزق أمتنا بأمثال هؤلاء القادة الأفذاذ، فيفتح الله على أيديهم، ويعيدوا للإسلام عزه ومجده.

المؤلف

نشأة الدولة العثمانية

شاءت إرادة الله سبحانه أن يبتلى العالم الإسلامى بهجوم قوم يسمون التتار، واستطاعت جيوشهم أن تدخل بغداد عام ٦٥٦هـ، وقتلوا أكثر أهلها، واستطاعوا أن يقتلوا الخليفة المستعصم بالله عبد الله بن المستنصر وانتهت بذلك دولة بنى العباس.

وأثناء ذلك قوى أمر المماليك فى مصر، وكونوا دولة قوية، واستطاع القائد المملوكى سيف الدين قطز أن يجمع حوله الجيوش وأحسن تجهيزها، وسار بها إلى عين جالوت، وقابل التتار عندها فى موقعة حاسمة كان لها أثرها فى جلاء التتار عن بلاد الإسلام.

وجاء من بعد قطز الظاهر بيبرس، فواصل قتال التتار،

وجاهدهم جهادا عظيما، وقدم مصر فى ذلك الوقت أحد بنى العباس، وهو المستنصر بالله أبو القاسم أحمد ابن أمير المؤمنين الظاهر، فبايعه الظاهر بيبرس وعلماء مصر بالخلافة، بعد أن ظل منصب الخلافة شاغرًا لمدة ثلاث سنوات ونصف وهكذا عادت الخلافة العباسية مرة ثانية، ولكنها كانت خلافة اسمية، فقد كان المماليك هم المتصرفون بالأمور كلها.

وأثناء هذه الأحداث كلها، كان القدر يعد فئة من المسلمين لتتولى أمر الأمة الإسلامية بعد ذلك.

ففى الوقت الذى بدأ فيه الهجوم المغولى نحو الغرب قاصدًا دولة خوارزم المسلمة، خافت كثير من القبائل من الهجوم الوحشى للتتار الذى يقتل بلا حساب، ويحرق الأخضر واليابس، فهجرت هذه القبائل مواطنها، واتجهت نحو الغرب، وكان من بين هذه القبائل قبيلة قاتى التركمانية والتى يرأسها سليمان شاه بن قيا ألب، وكان موطن قبيلته بالقرب من مرو قاعدة بلاد التركمان،

واستقرت هذه القبيلة فى خلاط شمال بحيرة وان.

وعندما هدأت موجة المد المغولى، أراد سليمان أن يعود إلى موطنه، وبينما هو فى طريق عودته إلى بلاده غرق فى نهر الفرات، فاختلف أبناؤه الأربعة فى الطريق الذى يجب أن يسلكوه، فرجع الابن الأكبر سنقورتكن مع أخيه كون طوغرى إلى موطنهم الأول، وأما أخواه الآخران أرطغرل ودندان فقد اتجها نحو الشمال ومعهما أربعمائة أسرة تركمانية، واستقروا فى الأناضول، وتولى أرطغرل زعامة هؤلاء الأمراء.

وفى هذه المنطقة كانت تقع إمارة قرمان المسلمة ومركزها مدينة قونية وقائدها الأمير علاء الدين السلجوقى، فحدث أن وقعت معركة بين الجيش البيزنطى والجيش السلجوقى بقيادة الأمير علاء الدين، فأسرع أرطغرل، ووقف بجانب إخوانه المسلمين بقيادة علاء الدين، فأحرز علاء الدين النصر على البيزنطيين، فكافأ أرطغرل على موقفه العظيم معه بأن أعطاه أرضا على

حدود بلاد الروم ليعيش فيها هو ومن معه، وليحموا إمارة قرمان من هجوم البيزنطيين.

وتوفى أرطغرل عام ٦٨٧ هـ، وخلفه ابنه عثمان أكبر أولاده، وهو الذى تنسب إليه الدولة العثمانية، فهو مؤسسها وأول حكامها، وبدأ عثمان يوسع إمارته فضم قلعة قره حصار، فسر به الأمير علاء الدين، ومنحه الأرض التى فتحها، وسمح له بأن يضرب العملة باسمه، وأن يذكر اسمه فى خطبة الجمعة.

وفى عام ٦٩٩ هـ زحف جيش كبير من المغول على سلطنة علاء الدين، فقاومهم فترة، ولكن بعض قواده خانوه، وعادوه، فاضطر علاء الدين إلى أن يهاجر إلى بلاد الروم، وهناك توفى، وانقرضت بذلك الدولة السلجوقية، فاجتمع الناس على عثمان بن أرطغرل ليكون سلطانا عليهم، ففسح المجال لعثمان، وبدأ يوسع أركان مملكته، واتخذ مدينة ينى شهر مركزًا له، وأخذ يحكم بالقسط والعدل، وينصف المظلوم، ويعطى لكل ذى حق

حقـه، وفتح قلعة كسـتل، وأرسل ابنه أورخان على رأس جيش كبير إلى مدينة بورصة، ففتحها عام ٧٢٦ هـ.

وفى العـام نفسـه توفى السلطان عثـمان بعـد أن ظل سـبعًا وعـشريـن سنة سلطانا على هذه المنطقـة، وأسس خلالها الدولة العثمانيـة، وكان رحمه الله شجاعًا باسلا، شديد البأس، سديد الرأى، عالى الهمة، كريم الخلق.

وخلفه على الحكم ابنه السلطان أورخـان، فعين أخاه عـلاء الدين وزيرًا وأمـره بوضع الشـرائع وسن القـوانين وتنظيم أمور البلاد، وجعل مـدينة بروسة مركزًا للسلطنة، واهتم بعـد ذلك بتـوسـيع نطاق المملكة، وكـون الجـيش الجديد من أبناء الأسرى والصغار الذين يقعون فى الأسر، فيربون فى ثكنات عسكرية تربية إسلامية، ويدربون تدريبا عـسكريا، ويتـخرجـون لا يعـرفون إلا القـتـال والحيـاة العسكرية والإسـلام والجهاد فى سبيل الله، لـذا كانوا قوة كبيرة سـاعدت العثمانيين فى ضرب خصـومهم، وامتداد الفتوحات العثمانية.

وبدأت حدود الدولة العثمانية تتوسع على يد سلاطينها الأقوياء الأفذاذ، وبدأ العثمانيون يتطلعون إلى غزو أوروبا، وكان ذلك على يد السلطان مراد الأول بن أورخان، ومن بعده السلطان بايزيد بن مراد، ولكن السلطنة العثمانية أصيبت بانتكاسة شديدة في عهده إذ أغار عليها تيمورلنك ملك المغول، ولكن سرعان ما التقطت السلطنة أنفاسها مرة ثانية وعادت إليها هيبتها ومكانتها على يد السلطان محمد بن بايزيد، ومن بعده ابنه السلطان مراد الثانى الذى تولى أمور البلاد وعمره لا يزيد على ثمانى عشرة سنة، ولكنه كان شجاعا قويا، فاستطاع أن يخمد نيران الفتنة داخل بلاده، وأن يعيد الأمن إلى أركان مملكته، ثم اتجه بعد ذلك إلى الفتوحات الخارجية، فزحف على القسطنطينية وحاصرها وكر عليها عدة مرات لكنه لم يستطع أن يفتحها لقوة أسوارها وحصونها، وظل السلطان مراد يواصل فتوحاته، ليعيد للسلطنة العثمانية هيبتها.



محمد الفاتح

وفى ليلة السابع والعشرين من شهر رجب عام ٨٣٥ هـ جاءت البشرى إلى السلطان مراد بمولد طفل جديد له، فسماه السلطان مراد محمدًا تيمنا باسم النبى ﷺ، وتخليدا لاسم أبيه السلطان محمد بن بايزيد، وكانت أم هذا الطفل سيدة مؤمنة مسلمة اسمها خديجة خاتون، وهى حفيدة الأمير اسفنديار بك الذى كان حاكما لمنطقتى سينوب وقسطمونى قبل أن يعيدهما السلطان مراد إلى سيطرة الدولة العثمانية عام ٨٢٧ هـ.

وأحاط السلطان مراد ابنه محمد بالرعاية والحب، ونشأ محمد كذلك في رعاية خيرة علماء زمانه، وعلى رأسهم الشيخ أق شمس الدين، يصقلون مواهبه ويشرفون

على تربيته وتأديبه، ويزودونه بالعلم والمعرفة.

وكذلك عهد به أبوه السلطان مـراد إلي عدد من خيرة فرسانه يدربونه على الفروسية والجندية وحب الجهاد.

وعندما تخطى مـحمد سـن العاشرة عـينه والده واليا على مقاطعـة أماسيا، ثم عينـه قائدًا عاما لمنطقة مـانيسا، وأحاطه والده بنخبة من العلمـاء والقادة ليعينوه على تحمل أعباء المسئولية، وما هى إلا فترة قصيرة حتى أظهر محمد درجة عالية من الكفاءة العسكرية والإدارية.

وفى عـام ٨٤٨ هـ كـانت صحـة السلطـان مراد قـد تدهورت وساءت نفـسيـته نتيـجة لوفاة ولـده البكر علاء الدين، وهزيمة جـيـوش السلطنة فـي عدة مـعـارك أمـام الجيوش المجرية والصليبية، وشعر السلطان بالتعب، فرأى أن يخلد إلى الراحة، فـاستدعى ابنه مـحمد من مانيـسا، وسلمه مقـاليد السلطنة فى أدرنة عاصمة الدولة العثـمانية فى ذلك الوقت، وذهب السلطان إلي غربى الأناضول فى ولاية آيدين حيث الهـدوء، ولم يكن محمـد عندما تولى

السلطة قد أكمل الرابعة عشرة من عمره.

واستمر محمد في إدارة شـئون البلاد عاما كاملا، ثم بدأت تواجهه بعض الصعوبات الداخليـة والخارجية، فقد عمل بعض رجـال حاشية أبيـه على إثارة الفتن الداخلية، واستصغر بعض قادة الجيش العـثمانيين السلطان الصغير، فعـصوا أمره، ونهبـوا المدينة. كما أن النصـارى وجدوها فـرصة ثمـينة لشن حـملة صليـبيـة جديـدة، فجـمعـوا جموعهم، وهاجموا بلاد البلغار.

وكان السـلطان محمـد يعلم أن صغـر سنه هو الذى أغرى الصليبيين على مهاجمة البلاد، وأغرى بعض رجال الدولة على إثارة الفتن الداخليـة، فقـرر السلطان محـمد استـدعاء أبيه لإدارة شئـون البلاد، فاعتـذر السلطان مراد لحاجـته إلي الراحة. فمـا كان من السلطان محـمد إلا أن أرسل إلى أبيه رسـالة تنبئ عن وعيه وإدراكـه لما تقتضـيه مثل هذه المواقف، وكان مما جاء فى رسالته:

إن كنت تصـر على أن أبقـى على رأس الدولة فـإنى

أذكرك يا والدى بما أوجبه الله على المسلمين من حق الطاعة لولى أمرهم، ولهذا فإنى آمرك أن تسرع بالقدوم إلى أدرنة لقيادة جيوش المسلمين.

وعندما وصلت الرسالة إلى السلطان مراد وقرأها، اغرورقت عيناه بالدموع من شدة الفرح، فقد أدرك حسن تصرف ولده، وصدقت فراسته فيه، وقال: لم يترك لنا ولدنا محمد عذرًا.

وعاد السلطان مراد فى الحال إلى أدرنة، وتنحى له ولده محمد عن مقاليد السلطنة، واستمر السلطان مراد فى قيادة أمور السلطنة، وواصل مسيرة الجهاد فى سبيل الله حتى توفى عام ٨٥٥ هـ.

وعند وفاة السلطان مراد كان ولده محمد فى مانيسا، فتوجه إلي أدرنة وتسلم من جديد المسئولية، وكانت خبرته هذه المرة قد نضجت، وازدادت حنكته فى تدبير أمور دولته، وبدأ السلطان محمد حكمه بعفوه عن بعض من قد أساءوا إليه خلال حياة أبيه مثل كبير الوزراء خليل باشا

فقد أبقاه السلطان محمد في منصبه، وضمن بذلك ولاءه هو وأعوانه، ثم أصدر السلطان محمد قرارًا يقضى بأن الموت سيكون مصير كل من يعلن العصيان المسلح ضد السلطان، ويتعاون مع أعداء الإسلام ضد المسلمين، أو يثير الفتنة بين المسلمين.

فقطع السلطان بذلك الطريق على كل من تسول له نفسه إثارة الاضطرابات داخل الدولة، فعاد الهدوء والأمان بذلك إلى الجبهة الداخلية للسلطنة.

وبدأ السلطان محمد يعد العدة ليواصل مسيرة الجهاد فى سبيل الله، هذه المسيرة الخالدة التى بدأها أجداده وآباؤه، ولم ينس الوصية التى أوصاه بها والده عند موته، وهى فتح القسطنطينية، هذ الحلم الذى عاشت الأمة الإسلامية تنتظره سنوات طويلة.



القسطنطينية

القسطنطينية هى المدينة الكبرى عاصمة الدولة البيزنطية، كان اسمها قديما بيزنطة، وجدد بناءها وأعاد إليها جمالها ورونقها الملك قسطنطين الأول ملك الرومانيين، وسميت القسطنطينية باسمه، وكان ذلك سنة ٣٣٠ من الميلاد.

ولما جاء الإسلام، وأرسل الله سبحانه رسوله ﷺ للناس كافة، حمل أصحابه من بعده لواء الجهاد فى سبيل الله، وانطلقوا مجاهدين فى مشارق الأرض ومغاربها، وقضى المسلمون فى سنوات قليلة على دولة الفرس وعاصمتها المدائن، ودارت حروب كثيرة بين المسلمين والروم، وتقلصت دولة الروم، ولم يبق من مملكتها إلا

القليل، وكان المسلمون يعلمون أن دولة الروم لن تنتهى إلا بالسيطرة على عاصمة البلاد وهى القسطنطينية، وكان رسول الله ﷺ قد بشر المسلمين بفتح هذه المدينة، حيث قال: «لتفتحن القسطنطينية، فلنعم الأمير أميرها، ولنعم الجيش ذلك الجيش».

وانطلاقا من هذه البشرى حرص خلفاء المسلمين على تسيير الجيوش لفتح هذه المدينة كلما أتيحت لهم الفرصة.

وقد كانت أولى المحاولات التى قام بها المسلمون لفتح القسطنطينية على يد معاوية بن أبى سفيان -رضى الله عنه- عام ٣٤ هـ في عهد الخليفة عثمان بن عفان ثم تلتها محاولة أخرى فى خلافة معاوية بن أبى سفيان بقيادة ابنه يزيد برًا وبقيادة بسر بن أبى أرطاة بحرًا فى عام ٥١ هـ.

ويروى أن معاوية كان قد بعث بحمله أخرى قبل هذه الحملة بقيادة سفيان بن عوف عام ٤٨ هـ، وأثناء هذه الحملة توفى الصحابى الجليل أبو أيوب الأنصارى ـ رضى الله عنه ـ، وكان أبو أيوب ـ رضى الله عنه ـ قد أوصي

المسلمين أن يدفنوه عند أسوار القسطنطينية.

وأرسل الخليـفة سليـمان بن عبـد الملك حملة لـفتح المدينة سنة ٩١ هـ بقيادة أخيه مسلمة بن عبد الملك.

وفى عام ١٦٥ هـ أرسل الخليفة العباسى المهدى حملة لفتح المدينة بقيادة ابنه هارون الرشيد.

وقـام الخليفـة هارون الرشيـد بمحـاولة جديدة لفـتح القسطنطينية، وهكذا ظل فتح القسطنطينية حلما يراود كل مسلم يتولى أمر هذه الأمة.

وفى عهد الدولة العثمانية قام السلطان العثمانى بايزيد بمحاولة جديدة لفتح المدينة سنة ٤٩٧ هـ.

وقام السلطان العثمانى مـراد الثانى بمحاولة أخرى عام ٨٢٥ هـ.

ثم كانت المحاولة الأخيرة التى قام بها السلطان محمد ابن مراد، وتحققت على يديه بشرى رسول الله ﷺ.

التخطيط للفتح

كان السلطان محمد يعلم أن فتح القسطنطينية ليس أمرًا سهلاً، فهو يحتاج إلى التفرغ الكامل لهذه المهمة، والإعداد الجيد، وتوفير الجهود، والتخطيط الدقيق، والسرية المطلقة أثناء فترة الإعداد، لذلك فقد حرص على اختيار معاونيه من الثقات الذين لا يرقى الشك إلى إخلاصهم.

وعمل السلطان محمد على توثيق علاقاته بالقوى المجاورة، وتجميد خلافاته معها لكى لا ينشغل بها عن فتح القسطنطينية، وقد ساعد السلطان على النجاح فى هذه الخطوة أن القوى المجاورة له أيضًا كانت تتمنى أن تصل إلى اتفاق مع الدولة العثمانية يحقق لها الأمن.

وحدث أن أعلن أمير سلطنة قرمان السلجوقية العصيان على الدولة العثمانية فسارع السلطان محمد إلى عقد صلح معه مقابل بعض الامتيازات التى منحها له، وبينما السلطان فى طريق عودته من قرمان جاءته أنباء عن إعلان أمراء منتشه وأيدين وكرميان العصيان المسلح ضد الدولة، فأرسل السلطان جيشًا كبيرًا بقيادة إسحاق باشا استطاع أن يخمد نيران تلك الفتنة.

ويبدو أن هذه الأحداث قد أغرت الإمبراطور قسطنطين ضد الدولة العثمانية فأرسل إلى السلطان محمد يهدده بأنه سيقوم بإمداد الأمير العثمانى أورخان الذى يعيش فى القسطنطينية بالمؤمن والسلاح لكى يحارب الدولة العثمانية أو يدفع السلطان محمد مبلغا من المال نظير أن يمنع الإمبراطور قسطنطين ذلك. ولكن السلطان محمد رفض مطالب الإمبراطور، وبدأ فى بناء قلعة ضخمة على الشاطئ الأوروبى من مضيق البوسفور وسماها روملى حصار، وهذه القلعة تقع بمواجهة قلعة

أناضولى حصار التى بناها السلطان بايزيد على الشاطىء الأسيوى من البوسفور، وبذلك استطاع العثمانيون السيطرة على مدخلى البرسفور من شاطئيه الأسيوى والأوروبى، وضمنوا كذلك منع وصول الإمدادات إلى القسطنطينية.

وأحس الإمبراطور البيزنطى بخطورة الأمر، وحاول جاهدًا أن يقنع دول أوروبا وبابا روما بالوقوف معه لمواجهة الخطر العثمانى، ورغم هذه المحاولات التى كان الإمبراطور يبذلها لنجدة القسطنطينية، كان أهل بيزنطة غير مقتنعين بما يفعله الإمبراطور ويشكون فى نواياه، ظنا منهم أنه يريد منهم أن يتخلوا عن مذهبهم الأرثوذكسى ويعتنقون الكاثوليكية، لذلك فقد قام رجال الكنيسة الأرثوذكسية بإشاعة روايات ساذجة بين أهل المدنية تؤكد أن ملاكا أرزق سيهبط من السماء ليبيد المسلمين جميعًا إذا هم دخلوا القسطنطينية.

وحدث أن اعتدى بعض الجنود البيزنطيين على بعض

الجنود المسلمين الذين كانوا يقومون برعى قطعان من الغنم المخصصة لمؤونة الجيش، فاعتبر السلطان محمد أن ما حدث يعتبر خرقا للمعاهدة التى كانت بين المسلمين والبيزنطيين، لذلك فقد أعلن الحرب على الدولة البيزنطية.

وسارع السلطان محمد بتشديد الحصار حول القسطنطينية، وحين تيقن أن الحصار أصبح محكما عاد إلى أدرنة عاصمة بلاده ليمضى فيها موسم الشتاء ويكمل من هناك استعداداته لفتح القسطنطينية.

وأثناء ذلك عرض مهندس نصرانى مجرى على السلطان محمد أن يقوم بصنع مدفع ضخم لم يسبق لأحد أن صنع مثله، وكان هذا المهندس قد عرض اختراعه هذا على ملوك أوروبا فسخروا منه، وعرضه على إمبراطور القسطنطينية فلم ير منه تجاوبا، فعرضه على السلطان محمد فوافق وزوده بالمال والرجال فصنع هذا المهندس عدة مدافع كبيرة كان لها أثر بالغ فى فتح القسطنطينية.

الفتح المبين

بدأت طلائع الجيش العثمانى القادم من أدرنة بقيادة السلطان محمد تصل إلى مشارف القسطنطينية فى الخامس والعشرين من شهر ربيع الأول من عام ٨٥٧ هـ، وقد كان الجيش العثمانى المسلم يتفوق على نظيره البيزنطى من ناحية العدد والعدة، ووصل إلى القسطنطينية بضع مئات من الأوربيين المتطوعين الذين دفعهم الحماس الدينى رغم اختلافهم المذهبى مع الكنيسة الأرثوذكسية لإنقاذ مركز الكنيسة الشرقية من أن تقع فى قبضة المسلمين.

وفى يوم الجمعة السادس والعشرين من ربيع الأول واصل السلطان محمد زحفه نحو القسطنطينية، وكان حماس الجيش العثمانى للقتال عظيما، وكان على رأس

الجيش المئات من العلماء والشيوخ يرفعون أصواتهم بالتكبير، وفى مقدمتهم الشيخ أق شمس الدين، والشيخ القوراني، والشيخ خسروى، وقام الجيش بأداء صلاة الجمعة، ثم أصدر السلطان أوامره بأن تتخذ كل كتيبة مكانها المحدد لها حول أسوار القسطنطينية.

وفى مساء ذلك اليوم أرسل السلطان محمد رسولا إلى إمبراطور القسطنطينية يطلب منه تسليم المدينة حقنا للدماء ويتعهد له أن يسمح له بالخروج منها حاملا ما يريد من مال ومتاع، ويتوجه إلى المورة ويكون حاكما لها تحت سلطة الدولة العثمانية، وتعهد كذلك بتأمين أهل القسطنطينية، ولكن الإمبراطور رفض وأصر على الحرب.

وفى اليوم الثانى من ربيع الآخر بدأت المدافع العثمانية تدك أسوار القسطنطينية واستمرت فى ذلك لمدة ثمانية وأربعين يوما، فتهدمت أجزاء كبيرة من السور المحيط بالمدينة، وبدأت السفن الحربية العثمانية عملياتها العسكرية فسيطرت على جزيرة برينكيبوس الحصينة.

وأثناء ذلك تمكنت خمس سفن محملة بالمؤن والعتاد أرسلها بابا روما من اختراق المواقع العثمانية والوصول إلى القسطنطينية، فارتفعت معنويات المدافعين عن القسطنطينية، ولكن فرحتهم لم تدم، فقد أشرقت شمس يوم الثالث عشر من ربيع الآخر على حوالى ثمانين سفينة حربية عثمانية تتمركز داخل مياه خليج القسطنطينية.

فتعجب البيزنطيون وخاصة عندما علموا أن السلاسل الحديدة التى وضعوها على مدخل الخليج سليمة لم يمسها سوء، وأصيبوا بالحيرة والدهشة حتى إن بعضهم قال: إن هذه السفن قد هبطت من السماء.

ولكن الذى حدث أن العثمانيين نفذوا فكرة عبقرية بأن رصوا الآلاف من جذوع الأشجار الضخمة فى صفوف منتظمة على طول الطريق، وسكبوا الكثير من أطنان الدهن والزيت فوقها، لتسهيل عملية انزلاق السفن فوق هذا الجسر، وشارك بضعة آلاف جندى مسلم فى عمليات سحب السفن، وقامت مجموعة أخرى بربط السفن من

جميع جوانبها بحبال متينة لضمان توازنها أثناء سحبها، وكل ذلك تم فى ليلة واحدة. وأثناء ذلك قام السلطان بقذف سفن البيزنطيين الموجودة فى الخليج حتى لا تستطيع التصدى للسفن العثمانية أثناء إنزالها.

وحاول العثمانيون عمل سرداب تحت الأرض ليتسللوا منه إلى المدينة ولكن البيزنطيين اكتشفوا الأمر ففتحوا مكانا فى السرداب، وأدخلوا منه الزيت المحترق، فاستشهد جميع من فى السرداب.

وقام المسلمون بعمل صرح ضخم يزيد ارتفاعه عن ارتفاع أسوار المدينة ويتألف من عدة طبقات وكان صاحب فكرته هو السلطان محمد وكان هذا البرج المتحرك يتسع لبضع مئات من الجنود.

واستفاد المسلمون من السرداب الذى حفروه من قبل، فكانوا ينتقلون منه بين المعسكر وموقع البرج.

واستطاع المسلمون من خلال هذا البرج المتحرك أن

يهـدموا أحد أبراج بـاب المدفع أهم أبواب القسطنطينـية، ولكن البيزنطيين استطاعوا إحـراق البرج العثمانى، ولكن المسلمين أعادوا صنع العـديد من الأبراج المماثلة. وأرسل السلطان مـحمد رسـالة أخرى إلى الإمـبراطور البـيزنطى يطلب منه الاستسلام، ولكنه رفض وأصر على الحرب.

وبدأت أوروبا تصـحو من غـفلتهـا وتشعـر بخطورة الأمر، فـانتهز هونياد ملـك المجر فرصة تخليـه عن أمور الدولة إلى الملك الجديد لاديسـلاس الخامس، وأرسل إلى السلطان محمد يخبره بأن المعاهدة التى كانت بينهما لاغية وعليـه أن يتفاوض مع الملـك الجديد لتجـديدها، وأرسل بنسـخـة المعـاهدة الـتى لديه إلى السلطـان، وطلب من السلطان إعادة النسـخة التى لديه، ولكن السلطان محـمد رفض إعادة النسخة وأكد التـزامه بالمعاهدة؛ لأنها لم تكن بينه وبين هونياد، وإنما كـانت بين الدولة العثمـانية ومملكة المجـر، وبذلك فوت الـسلطان الفرصـة على ملك المجـر الذى فعل ذلك ليتمكن من نجدة القسطنطينية.

وعندمـا أدرك هونياد أن السلـطان فهم مـقصـده أقنع الملك الجديد بإرسال وفد جـديد إلى السلطان يلمح له فيه أن المجـر ستـساند نصـارى القسطـنطينية فى الدفـاع عن مدينتهم ولما وصل الوفد إلى السلطان محمد لم يرد بكلام وإنما أخذ الرسول إلي مواقع المدافع العثـمانية وأشار إليها قائلا: قل لسيدك هذا جوابى.

وفى ذلك الوقت، كـان بعض قادة الجـيش العثـمانى يرون ضرورة الانسـحاب ورفع الحصار عن المدينة، فـعقد السلطان مـجلسا للتـشاور فى الأمـر، وضم هذا المجلس الشـيخ أق شـمس الدين، والـشـيخ قـورانى، والشـيخ خسروى، واستقر الرأى فى النهاية على مواصلة الحصار.

وفى اليوم التالى أمر السلطان بالاستعداد لشن الهجوم على القـسطنطينيـة، وفى نهاية ذلـك اليوم أمـر السلطان جميع مراكز الجيش بإيقاد نيران المشاعل، فما هى إلا فترة قصيرة حـتى كانت النيران تحيط بالقسطنطينيـة، وتتصاعد مع ألسنتها هتافات التكبير والتهليل والابتهال إلى الله.

وكان السلطان قد بدأ صباح ذلك اليوم الاثنين بنفسه فنوى الصيام، وندب جنوده إلى الصيام لتزكى النفوس وتتطهر، فلما غربت الشمس أدى المسلمون صلاة المغرب جماعات كل جماعة فى الثغرة التى يقومون عليها، وتناول السلطان طعام الإفطار بين جنوده، ثم دعا مجلس حربه وقادة جيشه إلى الاجتماع وتحدث قائلا:

إذا أعاننا الله عز وجل ففتح علينا القسطنطينية، فسيتحقق فينا حديث رسول الله ﷺ، ومعجزة من معجزاته العظام، وسيكون من حظنا ما تضمنه حديث رسول الله ﷺ من التقدير والتشريف، فأبلغوا أبناء العساكر فردًا فردًا أن الظفر العظيم الذى سننجزه سيزيد الإسلام قدرا وشرفًا، ويجب على كل جندى أن يجعل تعاليم شريعتنا الغراء نصب عينيه، فلا يصدر عن أى واحد منهم ما ينافى هذه التعاليم وليتجنبوا الكنائس والمعابد ولا يمسوها بأذى، وليدعوا القساوسة والضعفاء والعجزة الذين لا يقاتلون.

وكان المسلمون ينتظرون الفجر ليبدءوا هجومهم، وبشكل غريب، هدأ كل شيء من حول أسوار المدينة، وخفتت أصوات المكبرين، وتوقفت المدافع عن القذف، وأطفئت النيران، مما جعل البيزنطيون يظنون أن الملاك الأزرق قد نزل من السماء ليدافع عن مدينتهم، ولكن سرعان ما ارتفع أذان الفجر يشق سكون الظلام، وأسرع المسلمون للوقوف بين يدى الله يؤدون صلاتهم ويسألون الله أن يرزقهم إحدى الحسنيين؛ النصر أو الشهادة.

ولما قضيت الصلاة تقدمت جيوش المسلمين نحو أسوار القسطنطينية مرتفعة أصواتها بالتكبير والتهليل، وفى مقدمتها السلطان محمد إلى جانبه العالم المجاهد الشيخ أق شمس الدين.

واقترب الجيش من أسوار المدينة، وأصدر السلطان أوامره بالاندفاع نحو الأسوار، وبدأت السفن العثمانية تدك الأسوار بالمدافع، وبدأ المسلمون ينصبون على أسوار المدينة السلالم الخشبية ليصعدوا إلى أعالى الأسوار

والأبراج، ويقذفون بآلاف الحبال المتينة لتثبيتها بواسطة الخطاطيف فوق الأسوار ليصعدوا بواسطتها لملاقاة الجنود النصارى، واشتد القتال بين الطرفين، وبذل المدافعون عن المدينة غاية جهدهم فى صد الهجوم الإسلامى، وتمكنوا من قذف الكثير من السلالم بمن عليها من المسلمين على الأرض، فاستشهد أكثرهم، ولم ييأس المسلمون بل كانوا يعاودون المحاولات مرة بعد مرة، واستمر كر المسلمين نحو أسوار القسطنطينية أكثر من ساعتين، حتى أشرقت شمس يوم الثلاثاء العشرين من جمادى الأولى من عام ٨٥٧ هـ، فأصدر السلطان أوامره بإيقاف هجوم المشاة، وأمر المدافع أن تعاود دك أسوار المدينة لإحداث فجوات فى الأسوار يسهل على المسلمين اختراقها.

وفي الضحى توقف القصف المدفعى وعاد المسلمون إلى مهاجمة الأسوار، وانطلق العالمان أق شمس الدين، ومولا القورانى يتقدمان الصفوف، ويلهبان الحماسة والشوق إلى الشهادة.

واشـتد القـتال بين الطرفين واسـتطاع المجاهد حـسن أولوبادلى أن يدخل المدينة ومـعه ثلاثون مـجاهدا، ولكن البيـزنطيين فطنوا إليهم، وانهالوا عليـهم حتى استشـهدوا جميعا. وأصـدر السلطان أوامره بالتراجع، فظن النصارى أن المسلمين قد يئسوا ففرحوا وهنأ بعضهم بعضا.

ولكن السلطان كـان قد أصدر أمـره بالتراجع ليجـهز لهجـوم جديد، وأمر بتركـيز الهجوم على ثلاث جـهات معـينة من الأسوار، وقبل أن ينطلق السلطان بنفـسه على رأس الهجوم الأخير خطب فى الجيش قائلا:

يا أبنائى، هأنذا استـعد للموت فى سبـيل الله، فمن رغب في الشهادة فليلحق بى.

وتدافع المسلـمـون خلف قـائدهم، واندفـع السلطان بجنوده داخل المدينة من ثغرة فى جهة باب المدفع، وتمكن القائد المسلم قراجا بك من دخول المدينة من جهة الشمال، واشتد القتال بين المسلمين والبـيزنطيين وقتل قائد النصارى

فى تلك الجهة.

وتمكن الأسطول العثمانى من إزالة السلاسل الحديدية على باب الخليج ودخل الأسطول لينضم إلى السفن العثمانية المتواجدة فى الخليج، واقتربت السفن من أسوار المدينة، ونزل الجنود من السفن، وانقضوا من فوق الأسوار ودخلوا المدينة بقيادة حمزة باشا، وقُتل جوستنيان قائد المدافعين عن المدينة، وقتل أيضًا الإمبراطور قسطنطين.

وصعد المسلمون فوق أسوار المدينة يزيلون الرايات البيزنطية ويضعون مكانها الرايات العثمانية، وخر السلطان محمد الفاتح ساجدًا على الأرض شكرًا لله.

وتقدم المسلمون داخل المدينة التى أصبحت خاوية من الناس فقد فروا إلى الكنائس، ولجأ معظمهم إلى كنيسة أيا صوفيا.



الفاتح في القسطنطينية

دخل السلطان القسطنطينية من باب المدفع واتجه إلى كنيسة أيا صوفيا فوجد فيها أعدادًا كبيرة من النصارى، فطمأنهم السلطان، وأمنهم على أرواحهم، وأحضر وزير الإمبراطور المقتول وأمره أن يشرف بنفسه على دفن الإمبراطور حسب تقاليدهم.

وأعلن السلطان أن بإمكان جميع الذين فروا من المدينة أن يعودوا إليها خلال شهرين، فمن تأخر عن العودة بعد انقضاء هذه المهلة تصبح ممتلكاته من حق الدولة العثمانية.

وصلى السلطان محمد الفاتح صلاة الظهر جماعة داخل كنيسة أيا صوفيا بعد أن أخليت ممن كان فيها من النصارى وتم إزالة ما كان بداخلها من التماثيل، وكان

السلطان قد صلى ركعتين شكرًا لله على ما أفاء على المسلمين من نعمة النصر والفتح، وذلك قبل أن يصلى الظهر، ومنذ ذلك الوقت تحولت كنيسة أيا صوفيا إلى مسجد، وأمر السلطان محمد الفاتح بالاحتفاظ باسمه، فأصبح يعرف بمسجد أيا صوفيا، وأقيمت أول صلاة جمعة فى مسجد أيا صوفيا فى اليوم الثالث والعشرين من جمادى الأولى عام ٨٥٧ هـ، وكان خطيب الجمعة وإمامها العالم المجاهد الشيخ أق شمس الدين.

وسلك السلطان مع أهل القسطنطينية سياسة التسامح والرأفة، وأمر جنوده بحسن معاملة من فى أيديهم من الأسرى والرفق معهم.

واجتمع السلطان مع الأساقفة وهدأ من روعهم، وطمأنهم إلى المحافظة على عقائدهم وشرائعهم وبيوت عبادتهم، وأمرهم بتنصيب بطريرك جديد فانتخبوا جناديوس بطريركا، ثم توجه مع بعض الأساقفة إلى السلطان فأكرمه السلطان واستقبله بحفاوة.

وكـان لهـذه المعـاملة أثر كـبيـر فـى نفـوس أهل القـسطـنطينيـة، فلم تمـض أيام قليلة حـتـى كـان الناس يستأنفون حياتهم المدنية العادية فى اطمئنان وسلام.

وعلم السلطان محمد الفاتح بخيانة وزيره خليل باشا، فـعزله، وأمـر بإعـدامه، وعين مكـانه فى منصب الوزير الأعظم مـحـمود باشـا، وعين سليـمـان باشـا حـاكمـا للقسطنطينـية، وعين الشيخ جلال زاده خـضر بك قاضـيا لها.

وعندما وصلت الأخـبار إلى البـلاد الإسلاميـة بفتح القسطنطينية استبشر الجميع بفتح المدينة التى بشر النبى ﷺ بفتحها قبل أن يتم الفتح بـأكثر من ثمانمائة عام، وأقيمت صلوات الشكر لله عز وجل فى جميع أنحاء البلاد، وكان السلطان الفاتح قد أرسل إلى البلاد الإسلامية بخبر الفتح، وقد كـتب السلطان الفاتح إلى سلطان المماليك فى مـصر يبـشره بـالفتح قـائلا: إن من أحـسن سنن أسـلافنا أنهم مجـاهدون فى سبـيل الله ولا يخافون لومـة لائم، ونحن

على تلك السنة قائمون، وعلى تلك الأمنية دائمون متمثلين بقوله تعالى: ﴿**قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ**﴾، ومستمسكين بقوله عليه السلام: «من اغبرت قدماه فى سبيل الله حرمه الله على النار». ولهذا، فقد هممنا هذا العام، معتصمين بحبل الله ذى الجلال والإكرام، ومستمسكين بفضل الملك العلام إلى أداء فرض الغزاء الذى فرضه علينا الإسلام، مؤتمرين بأمره تعالى: ﴿**قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ**﴾ وجهزنا عساكر الغزاة المجاهدين من البر والبحر لفتح مدينة ملئت فجورًا وكفرا، والتى بقيت وسط الممالك الإسلامية تباهى بكفرها فخرًا.

ولما وصل وفد السلطان الفاتح إلى القاهرة زفت البشائر بالقلعة، ونودى فى القاهرة بالزينة، وأرسل سلطان المماليك الوفود إلى أدرنة لتهنئة السلطان الفاتح بنصر الله.

ووقع نبأ سقوط القسطنطينية على العالم النصرانى كوقع الصاعقة، ودأب النصارى يبحثون عن مبررات وأعذار ليخففوا بها من عار الهزيمة التى لحقت بهم،

وأصبح الخطر الإسلامى الذى يدق أبواب أوروبا حديث الناس فى أوروبا كلها.

وأيقن نصارى أوروبا أنهم أصبحوا وحيدين فى ميدان التصدى للخطر الإسلامى، فقد نجحت سياسة السلطان الفاتح المتسامحة مع نصارى القسطنطينية فى تحييد الكنيسة الأرثوذكسية وأتباعها، لذلك بدأت القوى المجاورة تتلمس رضا السلطان العثمانى محمد الفاتح وأرسلوا وفود التهنئة للسلطان، وأبدوا استعدادهم للخضوع لحماية الدولة العثمانية، وهكذا يظهر لنا مدى أهمية المحافظة على قوة المسلمين، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿**وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ**﴾.

واهتم السلطان الفاتح رغم انشغاله بشكل مستمر فى الشئون الحربية باضفاء الصبغة الإسلامية على القسطنطينية، فأطلق على المدنية اسم «إسلام بول» أى مدينة الإسلام، وقام ببناء مسجد كبير عند قبر الصحابى

الجليل أبى أيوب الأنصارى، وكان العالم المجاهد أق شمس الدين هو الذى اكتشف مكان القبر إثر رؤيا صالحة رأى فيها فيما يرى النائم موقع القبر، فلما أفاق من نومه بشر السلطان برؤياه، وكان ذلك قبيل فتح القسطنطينية.

وفى العاشر من ربيع الأول عام ٨٦٣ هـ توفى الشيخ العالم أق شمس الدين فحزن السلطان لوفاته حزنا شديدًا.

وقام السلطان الفاتح ببناء مسجد فى إسلام بول لتخليد ذكرى الانتصار الإسلامى ضد البيزنطيين، وسمى المسجد باسم السلطان العظيم محمد الفاتح، وبنى حول المسجد ثمانى مدارس إسلامية، وأقام إلى جانب هذه المدارس مستشفى لمعالجة المرضى الفقراء.



مواصلة مسيرة الجهاد

وأراد السلطان الفاتح بعـدئذ أن يتوجه إلى بلاد المورة لفتحها، فأرسل ملكهـا إليه يعرض عليه دفع جزية سنوية كبيـرة، وصالح أمير الصرب مقـابل الجزية عام ٨٥٧ هـ، وفى السنة التالية دخل السلطان إلى بـلاد الصرب وحاصر بلغـراد ودافع عنها المجـر، ولم يتـمكن العثـمانيـون من فتحها، ثم سار إليها الوزير الأعظم مـحمود باشا ففتحها بين عامى ٨٦١ هـ - ٨٦٣ هـ.

وتمكن السلطان من فتح بلاد الموره عـام ٨٦٣ هـ وفر ملكها إلى ايطاليا، كما فتح الجزر التى فى بحر إيجة قرب مضيق الدردنيل، وعقد صلحا مع إسكندر بك أمير ألبانيا.

وتوجه سرًا إلى الأناضول ففتح ميناء اماستريس الذى

يتبع جنوه، وأكثر سكانه من التجار، كما دخل ميناء سينوب، واحتل مملكة طرابزون دون مقاومة وكانت تتبع القسطنطينية.

وسار السلطان الفاتح إلى أوروبا وضم الأفلاق إلى الدولة العثمانية.

وامتنع أمير البوسنة عن دفع الخراج، فسار إليه السلطان وانتصر عليه، وضم البوسنة للدولة العثمانية، وحاول ملك المجر مساعدة أهل البوسنة لكنه هزم، وأسلم الكثير من أهل البوسنة بعد ذلك.

واصطدم السلطان مع البنادقة الذين يملكون بعض المواقع فى بلاد المورة وجزرًا كثيرة فى بحر إيجة، وهاجم البنادقة بعض المراكز العثمانية ودخلوها، فسار إليهم السلطان، ففروا من مواقعهم ودخلها العثمانيون، وبعد فترة هدنة دامت سنة عاد البنادقة وأغاروا على الدولة، فتصدى لهم السلطان، وأخذ منهم بعض مواقعهم المهمة.

وبدأ البابا يدعـو إلى حرب صليبية، فـشجع إسكندر بك أمير ألبانيا على نقض عهده مع السلطان، ودعا ملوك أوروبا وأمـراءها لمســاندته، ولكن البـابا تـوفى ولم تقم الحرب الصليبيـة، لكن إسكندر بك نقض العهد، وحارب العـثمـانين، وكـانت الحرب سـجـالا بين الطرفين وتوفى إسكندر بك عام ٨٧٠ هـ.

ثم اتجه السلطان الفاتح إلى الأناضـول فضم إليه إمارة القرمان نهائيا.

وهاجم رجل يـسـمى حـسـن الطويل أحـد حلـفـاء تيمورلنك شرقى الأناضول واحـتل مدينة توقات، فأرسل إليه السلطان جيشـا هزمه عام ٨٧٤ هـ وحين أدرك حسن الطويل حرج موقفه بعثا وفدا إلى السلطان يطلب الصلح، وكـان هذا الوفـد برئاسـة والدته سـارة خـاتون، فـوافق السلطان، ولكنه أبقى والدة حـسن رهينة لديه، وأحـاطها بالإعزاز والإكـرام، وقد فعل ذلك لأنه يعـلم خبث نفس حسن الطويل فأراد أن يستوثق من التزامه.

وقد حـدث بين سارة خاتون والسلطان الفـاتح موقف يؤكد صدق التزام الفاتح بالإسلام وتفانيه فى الجهاد، فقد شاهدت سـارة خاتون السلطان بحالة من الانهـاك والتعب الشديد اضطرته إلى الاضطـجاع إلى جذع شجـرة بعد أن بذل جهـدًا كبيرًا فى مـشاركة جنوده فى تقطيع الأشـجار وإزالة الثلوج لتمهيد الطريق أمـام الجيوش، فاقتربت منه، وقالت له: يا بنى، ما الذى يجبرك على تحمل هذا العناء، من أجل مدينة صغيرة؟ فقال السلطان: يا أماه، هذا العناء كله فى سبيل الإسلام، وهل تظنين أننا نكون أهلا لنسمى بالمجاهدين، إذا لم نتحمل هذا العناء فى سبيل الله.

يا أماه، إن هذه الـسيوف التى نحـملها ليـست للزينة والتباهى، وإنما لنقاتل بها فى سبيل الله.

وقـد أعاد السلطان الفـاتح السيـدة سارة خـاتون إلى ولدها بعد أن فرغ من بسط سيطرته على مملكة طرابزون.

وفى عام ٨٧٨ هـ عـرض السلطان على أمير البـغدان دفع الجزية حتـى لا يحاربه فلم يقبل الأميـر، فأرسل إليه

السلطان جيشا وانتصر عليــه بعد حروب عنيفة، ولكنه لم يستطع فـتح هذا الإقليم، فعزم على دخول القـرم للإفادة من فرسانهـا فى قتال البغدان، وتمكن من احـتلال أملاك الجنويين الممتدة على شواطئ شبه جزيرة القرم.

ولم يقاوم التتار سكان القرم العـثمانيين بل دفعوا لهم مبلغا من المال سـنويا، وأقلعت السفن العثمـانية من القرم إلى مصب نهـر الدانوب فدخلت، وكـان السلطان يدخل بلاد البغدان عن طريق البر، فانهزم اصطفان أمير البغدان، فتبـعه السلطان فى طريق مجهولة، فـانقض عليه اصطفان الرابع وهزم السلطان الفاتح.

وصالح السلطان البنادقة، وانهزم أمام المجر عندما سار لفـتح ترانسلفانيـا، ولكنه فى البحـر فتح الجـزر التى بين اليونان وإيطاليا. كما فـتح مدينة أوترانت فى جنوبى شبه جزيرة ايطاليا عام ٨٨٥ هـ وحاصـر فى العام نفسه جزيرة رودوس ولم يتمكن من فتحها.

وفاة السلطان الفاتح

بعد أن صلى السلطان محمد الجمعة فى السابع والعشرين من شهر صفر عام ٨٨٦ هـ انطلق على رأس جيشه نحو اسكودار على البر الأسيوى ولم يشأ أن يطلع أحدًا على وجهته الحقيقية، ويرجح أن السلطان أراد أن يتوجه إلى رودوس عن طريق البر.

وفى الطريق شعر السلطان بوعكة شديدة ألزمته الفراش بضعة أيام، ولكنه تحامل على نفسه وأصر على الانطلاق على رأس جيشه، ولم تفلح نصائح أطبائه فى اقناعه بتأجيل المسير.

وفى منتصف الطريق اشتد المرض على السلطان، وجاءه أجل الله، وصعدت روحه الطاهرة إلى ربها بعد أن

صلى العصر وهو مضطجع على ظهره، وكانت وفاته يوم الجمعة الخامس من ربيع الأول عام ٨٨٦ هـ، وقبل أن يموت ترك لابنه بايزيد وصية عظيمة قال له فيها:

يا بنى، هأنذا انتقل إلى رحمة ربى، وأنا غير آسف لأننى أضع الأمانة فى عنق رجل مثلك.

يا بنى، كن عادلاً صالحًا رحيما، ولتكن رعايتك لجميع الناس من رعيتك من غير تميز، واعلم يا بنى أن نشر الإسلام فى الأرض هو واجب الملوك على الأرض، فاعمل على نشر دين الله حيثما استطعت واجعل كلمة الدين فوق كل كلام، وإياك أن تغفل عن أمور الدين، ولا تستخدم الأشخاص الذين لا يهتمون بأمور الدين أو الذين يقترفون الكبائر وينغمسون فى الفحش، وإياك أن تجرى وراء البدع المنكرة، وأبعد من حولك أصحابها، وقرب منك العلماء وأرفع شأنهم فإنهم ذخيرة الأمة في الملمات.

يا بنى، حذار أن تغرك كثرة الأموال والجنود، وإياك أن تخالف أمر الشريعة فى أى شأن، واحرص على الدين

فإنه سر انتصارنا.

يا بنى، هأنذا أموت تاركًا ورائى كل النعم الجليلة التى أكرمنى الله بها إلى نعم أكبر وأبقى، فإن رغبت فى اللحاق بى إلى رحاب الله، فالزم طريقى، واسلك السبيل الذى سلكته فى سبيل الله.

فما أعظمها من وصية، وما أحسنها من كلمات صادقة من قلب عرف الله، وجاهد فى سبيل الله، وحسبه أنه مات وهو فى طريقه لمواصلة الجهاد فى سبيل الله.

وحزن المسلمون حزنًا شديدًا على وفاة السلطان الفاتح، وعم الفرح أوروبا كلها، وتنفست الصعداء بعد سنوات طويلة من انحباس أنفاسها تحت وطأة الخوف والهلع من السلطان المؤمن محمد الفاتح.

فرحمة الله عليك أيها السلطان المؤمن العابد العالم المجاهد، وجعلك الله مع النبيين والصديقين والشهداء وحسن أولئك رفيقا.

رقم الايداع
٩٨/١٣٨٤٨
الترقيم الدولى
٥ ـ ٢٢٨ ـ ٢٦٥ ـ ٩٧٧

مطابع دار الطباعة والنشر الإسلامية
العاشر من رمضان المنطقة الصناعية ب ٢ - تليفاكس : ٣٦٣٣١٤ - ٣٦٢٣١٣
مكتب القاهرة : مدينة نصر ١٢ ش ابن هانيء الأندلسي ت : ٤٠٣٨١٣٧ - تليفاكس : ٤٠١٧٠٥٣